

Source : AN-NAHAR
Date : 10.2.94
Photo No. : 147

وَهُمُ الْشَّبَابُ

من دمشق تأتينا مجددا دعوة الى تحقيق التضامن العربي الذي تستهدفه المخططات الاسرائيلية لأنه "حجر الزاوية في قوة الموقف العربي"، على حد قول جريدة "البعث" السورية قبل يومين.

قد يكون سهلا للغاية الانطلاق من الدعوة الى "التضامن العربي" للتمكّم على وضع هذا التضامن المفتقد منذ عقود. لكن لا معنى لمثل هذا التمكّم، فلو كان التضامن محققا لما كانت هناك حاجة الى ان يقوم المريضون على مستقبل الامة بالدعوة اليه.

تلك كانت قاعدة السياسة العربية منذ ان بدأ التفكك يلزمهها. وتلك قاعدتها اليوم، مع فارق بسيط هو ان احدا لم يعد يتوجه بإمكان تحقيق هذه الدعوة. فلماذا تصر اذا؟

لقد مرت علينا المئات من الدعوات الى التضامن، الى حد اتنا صرنا نقف حائرين عندما تصلنا احدها: ترى، ما معناها؟ هل لها معنى خفي لم نتبه اليه للوهلة الاولى؟

في الماضي، كانت تثير مثل هذه الدعوات غريزة فك الالغاز التي باتت لسنوات ملزمة لممارسة الصحافة في العالم العربي، كما في كل البقع التي تفتقد الى شفافية السياسة. تسمع كلمة "تضامن" فتسارع الى رصد تحول حاصل في موقف الدولة المداعية الى هذا التضامن، او اشارة الى احتمال حصول هذا التحول، او تمديد بادخال تحول (والتمديد او الاشارة موجهان الى الدول المعنية بتلقي الدعوة).

فهل ما زال هذا النمط في قراءة "الشيفرة" صالحًا؟ هل نحن فعلاً مدعوون إلى فك اللغز الكامن وراء استعمال كلمة السر؟ ولكن، هل ما زال صائباً البحث عن لفزاً وهل بقي هناك ألفاز في السياسة العربية التي صارت محكومة بشفافية من نوع جديد؟

لا نغالي أن اجبنا بالنفي. لم يعد هناك ألفاز في الحياة السياسية، أقله في جانبها المتعدد الطرف. ثمة اسرار كثيرة داخل الدول العربية لكنها اسرار لا تتجاوز الحدود. فعندما يأتي الامر إلى العلاقات العربية - العربية أو العربية - الاسرائيلية، وهو الاطار الذي جاءت فيه الدعوة إلى التضامن، يصبح كل شيء مفضوضاً. هنا، لا تفيق البلاغة حتى في اخفاء الحقائق. بل صارت القاعدة ان يسير تطور الاحداث والخطاب الدعائي على خطين متوازيين يعرف القاصي والداني انهما لن يتقيا.

ولكن، لماذا الخطاب في مثل هذه الحال؟ وما الفائدة من الدعوة البلاغية إلى تضامن لن يتحقق؟

لنقل أنها فائدة جمالية. فهذا كلام جميل، وجميل، ان نسمعه مجدداً. ليس لأننا، كما يقال عادة، في أمس الحاجة إلى التضامن بعد خراب البصرة. إنما لأننا في صدد تدويع مرحلة كان "التضامن العربي" فيها عنواناً طلسمياً حاضراً على الدوام، وإن يكن فارغاً من أي محتوى. ولأننا مدعوون، اليوم قبل الغد، إلى إعادة صوغ علاقات التنسيق والتعامل السياسي في المنطقة، بادوات لا تمتصلة إلى المنطق السحري الذي ما زال يسيطر علينا.

انه كلام جميل لأنه بدأ يختلط بشيء من الحنين. لأنه يوحى بثبات، مهما يكن ومهما، قبل القفز في الفراغ. انه كلام الحب البائد قبل الفراق. كلام للهروب، لالتقاط النفس قبل تعلم اللغة الجديدة.

سمير قصیر